برنامج [الأمان الأمان.. يا صاحب الزمان] - الحلقة (9)
ولادة القائم من آل محمد صلوات الله عليهم - الجزء (6)
شاشة العترة - القسم (2)

السبت : 10 شهر رمضان 1439 - الموافق: 2018/5/26

✤ هذهِ هي الحلقةُ التاسعةُ مِن برنامجنا [الأمان الأمان.. يا صاحب الزمان] والعنوانُ هو العنوانُ نفسهُ الذي تقدّم في الحلقات الماضية: حديثُ الولادة (ولادةُ القائم مِن آل مُحمّد "صلواتُ الله وسلامه عليهم أجمعين")
وقد مرّ الكلام في أنّني اخترتُ نَمَطاً مِن أنماطِ عرض المعلوماتِ ورصْفها بين أيديكم سمّيتهُ "نَمَط الشاشات المُتعدّدة".. ومرّ الكلام في الشاشة الأولى "شاشة القرآن" وعرضتُ فيها صُوراً مُهمّةً جدّاً مِمّا اشتمل عليه الكتاب الكريم.

● ثُمّ بعد ذلك في الحلقة المُتقدّمة فتحتُ الشاشة الثانية والتي عنونتُها بـ(شاشةِ العترة) وسأعرضُ فيها الصُور التي تُناسبها.. وبدأتُ بالصورة الأولى: أحاديثُ الأئمة الإثني عَشَر.. ومُرادي مِن ذلك ما جاءَ عن النبيّ وعن الأمير والزهراء وسائر المعصومين مِن أحاديث تدور مَضامينُها حول الأئمة الإثني عَشَر.. إنْ كانَ ذكْرُ ذلكَ بنحوٍ إجمالي أو بنحوٍ تفصيلي.
وبدأتُ بأقدم كتابٍ عندنا وهو كتابُ [سُليم بن قيس] فهو أقدمُ كتابٍ بين أيدينا فِعلاً.. وحدّثتكم عن الموضوع وكيف أنّ هذا الكتاب معَ تعرّضهِ للتحريف لازالَ يحتفظُ بالكثير مِن أحاديثِ الأئمة الإثني عَشَر وسُليمٌ هذا تُوفّي سنة 76هـ.. وقد ألّف كِتابهُ هذا في أيّام شبابهِ في الأيّام العصيبة في أيّام خِلافة السقيفة..!

• وقد عبّر الإمام الصادق عن هذا الكتاب وَوَصفهُ أنّه أبجد الشيعة.. وفِعلاً هذهِ الكلمة تنطبقُ تمامَ الانطباق حتّى على المُتبقّي مِن هذا الكتاب.. فكتابُ سُليم لم يصِل إلينا كاملاً.. ولكن المُتبقّي من هذا الكتاب يُشكّل المُفردات الأولى للثقافة الشيعيّة الأصيلة.. وهذا بحدّ ذاتهِ يُسفّهُ أقوالَ كبار مراجع الشيعة الذين شكّكوا في كتاب سُليم بن قيس.. فوصْفُ الإمام هذا ينطبِقُ انطباقاً دقيقاً كاملاً على مضامين كتاب سُليم، وهذا يدلُّ على سفاهة أقوال المراجع الذين كذّبوا رواية الإمام الصادق في وصف كتاب سُليم بأنّه أبجد الشيعة وضعّفوها.

● حين نتحدّثُ عن كتابٍ ونمدحُ هذا الكتاب لا يعني أنّ كلّ كلمةٍ في هذا الكتاب هي صَادرةٌ عن المعصوم "صلواتُ الله وسلامهُ عليه".. خُصوصاً وأنّ كُلّ الكُتب تَعرّضتْ للتحريف أو التصحيف - إنْ كان ذلك مَقصوداً أو ليسَ مَقصوداً - هذهِ طبيعةُ البشر في نقلِ الروايات والأحاديث في مُستوى اللّسان، أو في مُستوى الكتابة والنقل على الأوراق، وفي سائر المُستويات الأخرى.
فالذين نقلوا لنا هذهِ الكُتب بشر.. والبشر يُلازمه السهوـ يُلازمه الخطأ يلازمه الاشتباه على طول الخط.

● بعد الحديث عن كتاب سُليم في الحلقة الماضية، انتقلتُ إلى آخر كتاب وإلى أهمّ كتابٍ صَدَر في آخر لحظةٍ وفي آخر مقطع زماني من عصر النصّ المعصومي الديني.. وهو كتاب [الكافي الشريف] للشيخ الكُليني الذي توفّي سنة 328هـ قبل وفاة السفير الرابع بسنة.. وعرضتُ لكم ما جاءَ مِن أحاديث في هذا الكتاب المُهم.

• هناك بابٌ عنوانه: ما جاء في النصّ على الأئمة الإثني عشر.. وقد ذكر الشيخ الكليني في هذا الباب 20 حديث.. ولكن الشيخ الكليني لم يتوقّف عند هذا الحدّ.. فهناك أبواب ذكر فيها النصوص الخاصّة بكلّ معصوم. وهناك أبواب تحدّث فيها عن موالد الأئمة المعصومين الأربعة عشر، وتحدّث عن مولد إمام زماننا، وتحدّث عن الذين وُفّقوا لِرؤيتهِ بعد ولادته الشريفة، وتحدّث في شُؤون غَيبةِ إمام زماننا.
هناك مجموعةٌ كبيرة مِن الأحاديث الشريفة يصل عددها إلى **378** حديث..! ولابدّ أن نلتفتَ إلى قضيّتين مُهمّتين بخصوص هذا الكتاب:

❖ **القضيّة الأولى**: أنّ الشيخ الكُليني لم يكنْ قاصداً لتأليفِ كتابٍ مُوسّعٍ يتناولُ فيه كُلّ المطالب التي ترتبطُ بعقيدتنا بِمُحمّدٍ وآل مُحمّد.. وهذا الأمر أشار إليه في مُقدّمة كتاب الكافي.. فقال أنّه يأملُ أن يُوفّق لِكتابةِ كتابٍ مبسوطٍ يتناولُ فيه موضوع الحُجّةِ بشكلٍ واسع وبشكلٍ يتناسب مع أهميّة هذا الموضوع. يقول في مُقدّمة كتابه الكافي:
(وأرجو أن يُسهّلَ اللهُ عزَّ وجلَّ إمضاءَ ما قدَّمنا مِن النيّة، إنْ تأخَّر الأجل صنَّفنا كتاباً أوسعَ وأكملَ منه نُوفّيه حُقوقَهُ كلّها إنْ شاءَ اللهُ تعالى..)
يعني بقولهِ "**أكمل منه**" يعني أكمل ممّا جاء في كتاب الكافي فيما يرتبطُ بموضوع الحجّة.. والمُراد مِن الحجّة هُنا الحديثُ عن مُحمّدٍ وآل مُحمّد في جميع العناوين التي تربطُ بعَقيدتنا بهم، وبتعبيرٍ آخر: ما يرتبطُ بالمباحث العقائديّة التي ترتبطُ بشأن الولاية (ولاية مُحمّدٍ وآل مُحمّد "صلواتُ الله وسلامهُ عليهم")
فالشيخ الكُليني يعتذرُ عن عدم توفيتهِ لكلّ حقوق موضوع الحجّة في كتاب الكافي..! ومع ذلك أورد مِن الروايات والأحاديث ما يرتبطُ بالنصّ على الأئمة الإثني عشر، والنصّ على المعصومين الأربعة عشر 378 حديث.. كُلّ هذه الأحاديث فقط في الجزء الأوّل..!
هُناك رواياتٌ في بقيّة الأجزاء تتناولُ هذا المَضمون، ولكنّني أخذتُ الجُزء الأوّل فقط باعتبار أنّ الجزء الأوّل مِن كتاب الكافي يشتملُ على كتابٍ خاصّ بهذا الموضوع وهو كتابُ الحُجّة.. وكما قلت: المُراد مِن كتاب الحجّة: ولايةُ مُحمّدٍ وآل مُحمّد "صلواتُ الله عليهم".
وكُلّ تِلك الأحاديث إجمالاً وتفصيلاً تُشيرُ إلى ولادة إمام زماننا الحجّة بن الحسن العسكري وتُشير إلى وُجودهِ المُستمرّ إلى هذه اللّحظة وإلى لحظةِ ظُهورهِ الشريف، وإلى مرحلة الرجعة.
فإمامُنا قد وُلِد، وهو موجودٌ، شاهدٌ علينا، غائبٌ عن أبصارنا.. نحن الذين غابت أبصارنا عنه، وإلّا فهو شاهدٌ علينا مُطّلعٌ على كُلّ صغيرةٍ وكبيرة مِن ظواهرنا وبواطننا.. مُحيطٌ علمهُ بالعالم كُلّه، باقٍ ببقاءِ الله سُبحانه وتعالى.. وهو الوجه الباقي الذي تحدّثتْ عنه سُورة الرحمن:

{**كُلّ مَن عليها فان ويبقى وجهُ ربّك ذُو الجلال والإكرام**}. هذا هو الوجه الباقي الذي يتقلّب بين أظهرنا كما جاء في كلماتهم الشريفة، والذي إليه نتوجّه إن كان ذلك في الشدّةِ أو في الرخاء (أين وجهُ الله الذي إليه يتوجّه الأولياء).
ذاك هو الحجّة بن الحسن "صلواتُ الله وسلامهُ عليه".. الإمام المولود في بيت إمامنا الحسن العسكري مِن أُمّه الطاهرة المُطهّرة السيّدة نرجس..
إمامنا الذي غاب غيبةً صُغرى وأقام نوّاباً أربعة نعرفهم بأسمائهم وصِفاتهم وتواريخهم .. ثُمّ بدأت الغَيبةُ الكبرى.
الأرض باقيةٌ ببقائهِ (**وبيُمنهِ رُزق الورى**) والذي هو أمانٌ لأهل الأرض وأهل السماء، والحُجّة المُطلقة على مَن خَلَق الله سُبحانه وتعالى.. هو بقيّةُ الله مِن مُحمّدٍ وعليّ وفاطمة.. هو ابنُ الحسين الشهيد وابنُ الأئمة المعصومين، هو الثاني عَشَر منهم والمولود في سامرّاء.
كُلّ هذهِ المضامين تشتملُ عليها أحاديثُ كتاب سُليم بن قيس، وكتاب الكافي للشيخ الكُليني.. وهذهِ الأحاديث التي أشرتُ إليها والتي بلغ عددها 378 حديث، كُلّها تنصّ على هذه المضامين المُجملة التي أشرتُ إليها.

● ذكرتُ لكم في الحلقة المُتقدّمة من أمراً أستنتجهُ من الواقع التأريخي للفترة التي عاشها الشيخ الكليني.
الشيخ الكُليني بِحسب المُعطياتِ المُتوفّرةِ عندنا في الكُتب التي ترجمتْ لهُ - وليستْ بالضرورة أن تكون هذه الكُتب دقيقةً جدّاً - ولكن ما جاء في أحوال شيخنا الكليني هو أنّه كان مِن أكابر وأفاضل شيوخ أصحابنا في بلاد الريّ (وهي جنوب طهران) وبعد ذلك انتقل إلى بغداد.

● معروفٌ أنّ الشيخ الكُليني بقي عشرين سنة في تأليف كتابه الكافي.. وتُوفّي سنة 328هـ.. أمّا السُفراء الأربعة:
• **السفير الأوّل**: عثمان بن سعيد العمري مدّةُ سفارتهِ لا نعلمها بالضبط ولكنّها ما بين خمس إلى ست سنوات.
• **السفير الثاني**: مُحمّد بن عُثمان بن سعيد العَمري سفارته كانتْ طويلة امتدتْ إلى أربعين سنة.
• **السفير الثالث**: الحُسين بن رُوح النوبختي، استمرّتْ سفارته إلى 21 سنة.
• **السفير الرابع**: وهو عليّ بن مُحمّد السَمَري، فكانتْ سفارتهُ قصيرة.. امتدتْ سفارتهُ إلى 3 سنوات فقط.. وتُوفّي وانتهتْ الغَيبةُ الصُغرى.

● الكليني تُوفي في الغَيبة الصُغرى قبل انتهائها.. ومِن خلال القرآئن نجد أنّه كان موجوداً في بغداد طِيلة الفترة التي ألّف فيها كتاب الكافي.. والمُدّة المعروفة التي قضاها في تأليف الكافي استمرّت عشرين سنة.. فهو على الأقل عاش في بغَداد مُدّة 20 سنة، ولازال قَبرهُ مَوجوداً ومَعروفاً في بغداد.. وربّما قد عاش في بغداد أكثر مِن ذلك، ولكن إذا أردنا أن نحسبَ العشرين سنة فإنّها ستكونُ على امتداد سفارة الحسين بن روح.
• الذي يبدو مِن خلال القرآئن التأريخيّة هو أنّ مُشكلةً كبيرةً حدثتْ أيّام الحُسين بن روح.. وهي فتنةُ ابن أبي العزاقر (فتنة الشلمغاني) مُحمّد بن علي الشلمغاني وهو من كبار علماء الشيعة.
كانتْ الشيعةُ تعملُ برسالتهِ العمليّة بأمرٍ وبإجازةٍ مِن السُفراء وخُصوصاً مِن السفير الثالث الحُسين بروح النوبختي وهو كتاب [التكليف]

● وقفة عند ما يقوله الشيخ الطوسي في كتابه [الغَيبة] بخصوص فتنة الشلمغاني.. يقول الشيخ الطوسي:
(**قال أبو الحُسين بن تمام: حدَّثني عبدُ الله الكوفي خادمُ الشيخ الحسين بن رُوح** - السفير الثالث - **قال: سُئِل الشيخ - يعني أبا القاسم "أي الحُسين بن رُوح"** - **عن كتب ابن أبي العزاقر** - الشلمغاني - **بعدما ذُمّ وخرجت فيه اللّعنة، فقيل له: فكيف نعمل بكتبه وبيوتنا منها ملاء؟ فقال: أقول فيها ما قاله أبو مُحمّد الحسن بن علي "العسكري صلوات الله عليهما" وقد سُئِل عن كُتب بني فضّال** - الذين قالوا بإمامةِ عبد الله الأفطح وقدّموه على إمامنا الكاظم "صلواتُ الله عليه - **فقالوا: كيف نَعمل بكتبهم وبيوتنا منها ملاء؟ فقال صلوات الله عليه: "خذوا بما رووا.. وذروا ما رأوا"**)
سبب خُروج اللّعنة في الشلمغاني مِن الناحية المُقدّسة هو:
أنّ الشلمغاني كان مِن كبار عُلماء الشيعة، وكان مَرجعاً مِن مراجع التقليد في زمان الغَيبة الصُغرى بأمرٍ وإجازةٍ مِن النوّاب الخاصّين.. فالشيعةُ كانت ترجعُ إليهِ؛ لأنّ النوّاب الخاصّين كانوا في حالةِ تقيّةٍ شديدة.
والشلمغانيُّ هذا لهُ الكثيرُ مِن الكُتب.. منها ما هو عقائديٌّ وأكثرُ كُتُبِهِ في العقائد.. ومنها ما هو فِقهيٌّ.. وكتابهُ [التكليف] كان مِن أشهر الكُتب المُنتشرة في بيوت الشيعة (في بغداد وغير بغداد).
فإنّ الرسالة العمليّة التي كانتْ تعمل الشيعة بها آنذاك في زمن الغَيبة الصُغرى - خُصوصاً في زمن السفير الثالث - هي كتاب [التكليف] للشلمغاني.
فلأنّ الشلمغاني كان مِن كبار علماء الشيعة، وكان مرجعاً للتقليد، وكانتْ الشيعة تعودُ إلى كتابه [التكليف].. أخذ به الطَمَع وأخذ به حُبّ الرئاسة إلى أن يدّعي أنّه هو شريكٌ للحُسين بن رُوح في النيابةِ والسفارة عن الإمام الحجّة الشاهد الغائب.. والقضيّةُ تطوّرتْ بعد ذلك إلى أن تَبنّى الفِكر الخطّابي..! فالشلمغاني في آخر أمْرِهِ صارَ خطّابيّاً.. ولِذا ما جاءَ مِن الناحية المُقدّسة في ذَمّهِ ولعنهِ، كان لأمرين:

✦ **الأمر الأوّل**: لادّعائهِ السفارة كذباً.

✦ **الأمر الثاني**: لِخطّابيّتهِ لعنةُ الله عليه.

• قول الإمام العسكري: "**خذوا بما رووا.. وذروا ما رأوا**".. يعني آراؤهم لهم، أمّا الروايات التي ثبّتوها في الكُتب فإنّنا لا نعبأ بالراوي أكان ضالاً أم مُهتدياً.. أكان فاسقاً أم كان مُؤمناً عادلاً.. نحنُ لا نعبأ بالراوي، وإنّما نعبأ بالمَتون وماذا نقل لنا الناقلون.. هذا هو منطق آل مُحمّد.
وهذه القاعدة التي بيّنها السفيرُ الثالث نقلاً عن إمامنا الحسن العسكري وعمليّاً عملتْ به الشيعة في زمان الإمام العسكري، وعملتْ بها الشيعة في زمان السفير الثالث تدوس علم الرجال بالأرجل والأحذية.. لأن هذا المنطق منطقٌ واضحٌ وصريحٌ لرفض علم الرجال ولرفض التوثيق وغير التوثيق.
الإمام يقول: "**خذوا بما رووا..**" يعني انظروا إلى المتون.. فلأنّ المتون كانتْ في كُتب بني فضّال كانتْ صحيحة، الإمام قال: خذوا بها، وذروا آراءهم جانباً ولا شأن لكم بهم ولا بآرائهم.

• القضيّة كبيرة.. حتّى لو كان كتابُ التكليف رواياتهُ صحيحةٌ.. ولكن هذا الكتاب ينتسِبُ إلى الشلمغاني اسْماً فهو الذي جمع هذه الأحاديث، والشلمغاني موجودٌ وفتنتهُ قائمة.. وفتنتهُ خطيرةٌ جدّاً؛ لأنّ الشلمغانيّ تَحوّل إلى الفِكْر الخطّابي، والفِكْرُ الخطّابيُّ اللّعين فِكْرٌ باطني.. والفكرُ الباطنيُّ إذا ما تَغرّس في النُفوس فإنّ الشيطان يُغرّسهُ بشكلٍ عميق بحيث مِن الصعوبة التخلّص منه؛ لأنَّ الفِكْر الباطني يقودُ الإنسان إلى ارتكاب الذنوب والمعاصي بعناوين أخرى.. وهذهِ المُشكلة الواضحة في كُلّ المجموعات والفِرَق الباطنيّة مِن أنّهم يصعُب عليهم أن يعودوا إلى جادّة الصواب.
وسأتحدّث عن هذا الموضوع (عن الفرق الباطنية وعن أخطارها العظيمة وعن فِتَنها في زمان غَيبة إمام زماننا ولكن بعد أن أُنهي الحديث في هذا الموضوع).
فهذه الفترة "فترة الحسين بن روح" وهذهِ الفتنةُ "فتنة الشلمغاني" لابدَّ من مواجهتها.
الحسينُ بن روح يُواجهها إلى حدّ ما؛ لأنّه كان مَحكوماً بالتقيّة والتستّر.. فلابُدّ مِن جهدٍ فِكريٍّ وعلميٍّ يتناسبُ مع هذه الفتنة.. والذي أظنّهُ (استنتاجاً) هو أنّ الشيخ الكليني وضعَ هذا الكتاب [كتاب الكافي] وضعهُ في مُواجهةِ هذهِ الانحرافات..! لذلك جعلهُ كتاباً كافياً شاملاً.. مثلما قال هو في مُقدّمة كتابهِ الكافي وهو يُخاطبُ الذي طَلَب منه تأليف هذا الكتاب:
(**وقلتَ: إنّك تُحبُّ أن يكونَ عندكَ كتابٌ كافٍ، يُجمَعُ فيهِ من جميع فنون عِلْم الدين ما يكتفي به المُتعلّم** - المُبتدئ - **ويرجع إليه المُسترشد** - أي الباحث عن الحقيقة في أعلى المُستويات - **ويأخذُ منهُ مَن يُريد عِلْم الدين والعمل بهِ بالآثار الصحيحةِ عن الصادقين "عليهم السلام" والسُننِ القائمة التي عليها العمل، وبها يُؤدَّى فرْضُ الله عزَّ وجلَّ وسُنّةُ نبيّه "صلّى اللهُ عليهِ وآله"، وقُلتَ: لو كانَ ذلك رجوتَ أن يكون ذلك سبباً يتدارك الله تعالى بمَعونته وتوفيقهِ إخواننا وأهل مِلّتنا ويُقْبِل بهم إلى مَراشدهم..**)
• نحنُ لا نعرف الشخص الذي طَلَب مِن الكُليني تأليف هذا الكتاب، ولكن لابُدّ أن يكون شَخْصاً جليلاً عظيم القدْر عند الشيخ الكُليني حتّى يتفرّغ مُدّة عشرين سنة لتأليف هذا الكتاب.
فيبدو أنّ هذا الشخص كان لهُ مِن الشأن ومِن عُلوّ المقام ومِن الاهتمام بواقع الشيعة على المُستوى العقائدي وعلى المُستوى الفتوائي.. ولذلك كان يرجو أن يكون تأليفُ الكتاب سبَبَاً يتدارك الله تعالى بمَعونته وتوفيقهِ الشيعة ويُقْبِل بهم إلى مَراشدهم.. كما ينقل الشيخ الكُليني في المُقدّمة.
ألا يُشعرنا ذلك أنّ الذي يطلبُ هذا الأمر مِن الكُليني هُو النائبُ الخاصّ للإمام الحجّة؟ أنا لا أقطعُ بهذا الأمر.. ولكن هذهِ الكلمات تُشعِرُ بذلك.
الشيخ الكُليني مُدّة عشرين سنة في بغداد وبالقُرب مِن السُفراء يتفرّغ لِجمع حديث أهل البيت ويأتي مِن بلاد الريّ، ويبقى في بغداد هذه المُدّة الطويلة كي يُؤلّف هذا الكتاب وبهذه الخصائص..!
علماً أنّ الشيخ الكُليني بعد أن أكمل الكتاب بفترةٍ ليستْ طويلة تُوفّي.. أدّى وظيفتهُ وتكليفهُ على أحسن وجه.. وتُوفي سعيداً رضوان الله تعالى عليه.
(وقفة عند قصّة نبش قبر الكليني مِن قَبَل أحد الحُكّام العُثمانيّين).

❖ **أمّا القضيّة الثانية في سبب خُروج اللّعنة في الشلمغاني، هي**: كيف ألّف الكليني هذا الكتاب؟! هذه قضيّةٌ مُهمّةٌ جدّاً.
● آلافٌ مِن الكتب ألّفها أصحابُ الأئمة "صلواتُ الله وسلامهُ عليهم" من حديثهم الطاهر.. وحين أتحدّثُ عن آلافٍ من الكُتب، ربّما بعض الكتب يشتملُ على وُريقاتٍ قليلة وعددٍ صغيرٍ ومحدودٍ مِن الأحاديث الشريفة التي إمّا أُخِذتْ بشكلٍ مُباشر عن المعصوم.. (مرّةً بطريقة الإملاء، يعني أنّ المعصوم هُو الذي يُملي على راوي الأحاديث.. ومرّةً أُخرى المعصوم هو الذي يكتبُ جواباً على أسئلةِ السائل.. ومرّةً الراوي يسمعُ كلام المعصوم ليس على سبيل الإملاء، وإنّما الإمام يُسأل مِن الحُضّار ويُجيب وهذا يكتب كما يسمع.. وأُخرى يكون حاضراً في مجلس الإمام ويحفظ حديث الإمام (مرّةً يحفظهُ بالنصّ، وأُخرى يحفظهُ بالمضمون) وقد أجاز لنا الأئمة أن ننقل أحاديثهم بالمضمون إذا عجزنا عن نقلها بالنصّ.. ثُمّ بعد ذلك يذهب إلى المكان الذي يكتب فيه ليكتب ما سمعهُ أو حفظه عن المعصوم إمّا بالنصّ أو بالمضمون.
• أنا هنا لا أريدُ أن أُحدّثكم عن كيفيّة وُصول حديث أهل البيت إلينا.. لأنّي سأُحدّثكم عن ذلك بالتفصيل في برنامج [الخاتمة]
لأنّ برنامج [خاتمة الملف] مُخصّصٌ لِهذا الموضوع: (كيف وصل إلينا حديثُ أهل البيت؟ وكيف نتعاملُ معهُ؟ وكيف نتواصل معه؟) هذا هو المضمون الأهمّ في برنامج [الخاتمة].
• فهناك آلافٌ مِن الكُتب.. منها ما هو كبيرٌ جدّاً.. فهُناك كُتبٌ تُسمّى بالجوامع وهي كُتبٌ كبيرة جدّاً مثل جامع البزنطي.. هذه الكُتب كثيرة جدّاً قد تصل إلى ستّة آلاف كتاب، ولكن البعض منها ضاعتْ مثلما ضاعتْ كتب ابن أبي عُمير حينما اعتُقِل أيّام هارون العبّاسي، وأُخته أخفتْ كُتُبه في موضعٍ في الدار.. ولكن بسبب الأمطار والرطوبة تلفتْ هذه الكُتب.
فهناك آلاف مِن الكتب ألّفها أصحاب الأئمة.. وقَطْعاً هذهِ الكُتب لا تخلو من الخطأ ومن الاشتباه ومن التحريف وحتّى من الوضع والتزوير.. فإنَّ الخطّابية قد دسُّوا الكثير من الأحاديث في تلك الكتب.. ولكن الأئمة قاموا بعمليّة تنقيةٍ لها.

✸ **خلاصة الكلام:**
هُناك مجموعة كُتب مِن هذه الآلاف مِن الكُتب عُرِفتْ بالأصول الأربعمئة.. وهذهِ المجموعة يُمكن أن نقول عنها زُبدةَ تلك الكُتب، منها ما هو صغيرٌ جدّاً، ومنها ما هو كبيرٌ جدّاً.. وحتّى هذهِ الكُتب ضاع منها ما ضاع.. وأنا هنا لستُ بصدد الحديث عن تأريخ ما كُتِبَ وأُلّف مِن كُتب في زمان الأئمة، ولكنّني أُريد أن أُعطيكم صُورةً إجماليّةً موجزة للواقع الشيعي مِن هذه الجهة (مِن جهة الكُتب والمؤلّفات). ولذا النجاشي حِين ألّف كتابهُ الذي سُميّ زُوراً برجال النجاشي.. حينما زوّر العلامّة الحلّي وابن داود الحليّ اسم الكتاب وغيّروه مِن كتاب الفهرستْ إلى [الرجال]، ولكنّهم غفلوا عن تزوير عنوان الجزء الثاني.. إلى الآن الجزء الثاني مِن كتاب [رجال النجاشي] اسمه: الفهرست.

فالنجاشي يعتذر في المُقدّمة عن أسماء الكُتب التي لن يستطيع أن يُوردها أو أن يتحدّث عنها، لِقلّة المصادر، ولِعدم توفّر هذه الكُتب.. وهذا الأمر واضح في مُقدّمة ما يُسمّى زُوراً بـ(رجال النجاشي) الذي اسمهُ الحقيقي (فهرستْ النجاشي) الذي لا هو كتاب رجال ولا هم يحزنون، وإنّما هو من تزوير علمائنا ومراجعنا. القضيّةُ عصيبةٌ جدّاً.. والنجاشي تُوفّي سنة 450 هـ في زمان الشيخ الطوسي.. أمّا الكُليني توفّي سنة 328هـ.

● الكليني انتقلَ إلى بغداد؛ لأنّ الزعامة الدينيّة الشرعيّةُ الحقيقيّة العُليا كانت في بغداد، فكُلّ النوّاب الخاصّين كانوا في بغداد (ابتداءً مِن العمري الأوّل، وانتهاءً بالسَمَري) وحتّى قبورهم في بغداد إلى يومنا هذا.. فالنوّاب الخاصّون كانوا في بغداد وإن كانوا في حالة تستّر.. ولكن شخصيّة مثل الكليني لن يكون بعيداً عن هذه الزعامات.

● ثانياً: الكتب الشيعيّة مُتوفّرة في بغداد أكثر من أيّ مكان آخر.. الرموز الشيعيّة العِلميّة كانتْ مُتواجدة في بغداد، فأفضلُ مكانٍ لتأليف كتابٍ بهذا المُستوى (بمستوى كتاب الكافي) هو في بغداد.

● لم يذكر الكليني أسماء المصادر التي نقل منها؛ لأنّه لم يكنْ مألوفاً في ذلكَ الوقت أن تُكتَب قائمةٌ بأسماء المصادر في أوّل الكتاب أو في آخر الكتاب.. ولكنّنا من خلال التتبّع في الأسانيد وأسماء الرُواة يُمكننا أن نُشخّص أنَّ الشيخ الكُليني نقل عن أكثر من 250 من المصادر الأصليّة من كُتب حديث أهل البيت، وربّما جمع كُلّ المصادر التي يُقال لها الأربعمئة وأكثر من ذلك.. فإنّ الكُتب ليستْ محصورةً بهذا العدد (أربعمئة).

• الشيخ الكليني كما يبدو مِن كتابه الكافي مِن خلال الأسانيد ومِن خلال الرواة أنّه استطاع أن يجمعَ أكبر قدْرٍ مُمكن مِن كُتب حديث أهل البيت في ذلك الوقت.. مع مُلاحظة أنّ كتاب الكافي كَمُل في 20 سنة.. فكان عندهُ مُدّة زمانيّة طويلة يستطيعُ أن يجمع كُلّ المصادر المُتوفّرة والتي يستطيع أن يصِل إليها.. وحتماً كتاب بهذا الحجم وبهذه الأهميّة لابُدّ أن تكون الزعامات الشيعيّة (أي النوّاب الخاصّين) لابُدّ أن يكونوا مُطّلعين على هذا الأمر - سواء بشكلٍ مُباشر أو بشكل غير مباشر- ولابُدّ أن يُقدّموا الدعم لهذا المشروع (بشكلٍ مُباشر أو غير مُباشر).

لا يُمكن أن نقول أنّ هذا الكتاب أُلّف وأنّ الكُليني قام بهذا المشروع بنحوٍ بعيدٍ ومُنفصلٍ عن النوّاب الخاصّين.. فهذا الأمر مُستبعدٌ جدّاً.. خُصوصاً وأنَّ الشيعة في زمن النُوبختي مرّتْ في فتنةٍ كبيرة (فتنة الشلمغاني وفتنةُ كتاب التكليف الذي كان موجوداً في كُلّ بيوتات الشيعة)..! لذا جاء كتابُ الكليني شفاءً وعلاجاً ودواءً ناجعاً إستجابةٍ للحاجة الدينيّة للواقع الشيعي.

• ما ألمسهُ مِن خلال مُعايشتي الطويلة لكتاب الكافي هو أنّ كتاب الكافي أفضلُ كتابٍ في الردّ على كُلّ الاتّجاهات المُنحرفة عن المنهج الاثني عشري المهدوي.. وأنّ ما بُيّن فيه مِن حقائق عقيدة أهل البيت هو الذي يُريدهُ إمامُ زماننا.. وهو بيانٌ واضح لتشخيص اعتقاداتنا الشيعيّة الأصيلة بعيداً عن الفِرَق الباطنيّة.

لأنّني ما وجدتُ كتاباً مِن كتب الحديث يجمعُ أُمّهات الأحاديث العقائديّة التي تصنعُ حِصناً حَصيناً للعالِم وللعارف بأسرار الكتاب وحديث العترة.. إنّها تصنعُ حصناً حصيناً لهُ تُبعِدهُ عن مَزالق الفِرَق الباطنية وعن مَزالق الغُلاة الذين هُم بنفس الدرجة من مُخالفة أهل البيت كما هم النواصب.. فكما أنّ النواصب يُعادون إمام زماننا.. فالغُلاة أيضاً يُعادون إمام زماننا.. ولكن كُلٌّ بِحسبه!

• جاء كتابُ الكافي كتاباً شاملاً جامعاً.. نسَّقهُ الكُليني بِنَسَقٍ علميّ دقيقٍ جدّاً.. ويتلمّس هذهِ القضيّة كُل مَن اطّلع على كُتب الشيخ الصدوق وعلى كُتب الشيخ الطوسي في ترتيب الأبواب وفي تصنيف الأحاديث وتقسيمها وتنويعها.

الكليني أحاديثه صُنّفتْ بطريقةٍ في غايةِ الروعة والدقّة والحكمة.. فحتّى العناوين فهي تنطبقُ انطباقاً كاملاً على مضامين الأحاديث.. والذي أعتقدهُ أنّ هناك بعض العناوين في هذا الكتاب لا تنطبقُ إنطباقاً كاملاً - وهي قليلةٌ - أعتقد أنّ هذه العناوين تعرّضتْ للتحريف..! هناك عابثٌ عَبَث بها.

لأنّ الكتاب من أوّله إلى آخره يتميّز بدقّة العناوين.. فعناوينُ كتاب الكافي كأنّها زُبدةٌ مُستخلصةٌ مِن مَضامين الروايات والأحاديث، وذلك فنٌّ يعرفه من يعرفه، ولا يتلمّسه إلى صاحب الخبرةِ الدقيقة في هذا الفن.

• ألّف الكليني هذا الكتاب فجَاءنا في أبهى صورة.. ولكن هذا لا يعني أنّ كُلّ لفظةٍ فيه قد صدرتْ عن المعصومين.

كما قُلت في الحلقات المُتقدّمة: الأصل فيما جاء مِن حديث أهل البيت في كُتبنا الحديثيّة المعروفة (مثل الكافي، وكُتب الشيخ الصدوق وأضراب هذه الكُتب) الأصل فيها الصحّة، إلى أن يثبت خلاف ذلك.

وإنّنا لا نملكُ كتاباً نستطيع أن نقول عن هذا الكتاب بأنّ كُلّ كلمةٍ فيه صحيحة وأنّها وردتْ عنهم "صلواتُ الله عليهم" لأنّ هذه الكتب نُقلت إلينا بجهد بشري.. صحيحٌ أنّ علائم التوفيق واضحةٌ في كتاب الكافي.. وصحيحٌ أنّ كتاب الكافي هو مُعجزةٌ فيما بين كُتب الحديث التّي ألّفها علماؤنا ومُحدّثونا وزُعماؤنا الدينيّون - على الأقل من وجهة نظري -.

● الذي أتلمّسه في هذا الكتاب (كتاب الكافي) أنّ الشيخ الكليني في عشرين سنة في بغداد وفي مُجاورة السُفراء الخاصّين للناحية المُقدّسة، وبمُساعدةِ شخصيّاتٍ علميّةٍ مرموقة: أمثال ابن أبي زينب النعماني.. فإنّ الشيخ الكليني نقلَ إلينا من أجلّة مشايخ الشيعة في عصره، ومن أعاظم الشيعة في وقتهِ من حَمَلةِ حديث أهل البيت.

• كتابُ الكافي عبارةٌ عن زُبدةٍ مُستخلَصةٍ مِن أهمّ كُتب حديث الأئمة.. الكليني اشتغل عليه عشرين سنة.. هو لم يكتبْ شيئاً من عنده، وإنّما جمعَ الحديث مِن كُتب حديثٍ كثيرة.. فكان يقومُ بعمليّةِ جمعٍ لِعددٍ وفير مِن الأحاديث ثُمّ يستخلصُ الزُبدة منها.. والذي أستشعرهُ هو أنّ الكليني كان على ذائقةٍ أدبيّةٍ عاليّةٍ جدّاً جداً.. وكان مُستشعراً لِلّحن المَعصومي.. وهذا ما يُمكنني أن أُثبتَهُ بالعشرات والعشرات من الشواهد.

فحينما أقومُ بعمليّة مُقارنةٍ بين روايةٍ ينقُلها الكُليني ورواية في نفس المضمون وفي بعض الأحيان بنفس السند وبنفس النصّ ولكن هناك اختلاف في ألفاظها ينقلها الصدوق في كُتُبِهِ أو ينقُلها الطوسي.. فما ينقله الكُليني هو أقرب ما يكون إلى أسلوب المعصومين.

• يُمكنني أن أقول: لو أنّ روايةً بنفسها نقلها الكُليني والصدوق والطوسي مع اختلافٍ في الألفاظ، فإنّ رواية الكُليني هي المُقدَّمة، ودائماً تشتمل على معانٍ أعمق وأدق من الرواية التي نقلها الشيخ الصدوق.. ورواية الصدوق مُقدّمةٌ على الطوسي أيضاً.. فكُتب الطوسي فيها اختلالٌ واضح.
لذا هذا الكتاب (كتاب الكافي) لهُ خُصوصيّةٌ عاليةٌ جدّاً يتميّز بها (جامعيّتهُ، كثرةُ أحاديثهِ، سعةُ موضوعاتهِ، دقّةُ عناوينهِ، اشتمالهُ على ما يرتبطُ بالمُعتقدات الأصول، اشتمالهِ على ما يرتبط بالأخلاق والسلوك والأوراد والأذكار وما يرتبط بالأحكام الشرعيّة في كلّ أبوابها وشؤونها.. وما يرتبطُ بتفسير القرآن وبالحوادث التأريخيّة المُهمّة.. وما يرتبط بالقواعد الفكرية التي تُشكّل لنا الموازين التي نقرأ بها ومن خلالها التأريخ وذلك كُلّه موجودٌ في الجزء الثامن والتي يُشكّك بها البعض ولا شأن لي بما يقولون..).
• قَطْعاً أنا لا أصِفُ هذا الكتاب بالكمال المُطلق، لا يُمكن هذا.. لكنّني أصِفُ الكتاب مِن حيث هو، ومِن حيث الكُتب الأخرى التي عاصرته والتي جاءتْ مِن بعده..
• أصِفُ هذا الكتاب مِن خلال اطّلاعي على الموسوعة الهائلة مِن حديث أهل البيت في مُختلف الكُتب.
• أصِفُ هذا الكتاب مِن خلالِ حاجتنا في الواقع الديني الشيعي.
• أصِفُ هذا الكتاب مِن خِلال الزُحام الفِكري للاتّجاهات الشيعيّة المُختلفة مُنذ أنّ أُلّف الكتاب وفي زَمان تأليفه وإلى يومنا هذا.
فلا أصِفهُ بالكمال المُطلق، ولا أصِفهُ بالعصمة، فهو جهدٌ بشري لجَمْع أحاديث أهل البيت.. تَعرّض هو الآخر للتحريف والتصحيف (منهُ ما هو مُتعمّد، ومنهُ ما هو بسبب الطبيعة البشريّة..) ولكن يبقى هذا الكتابُ كتاباً شامخاً في وسط المكتبة الشيعيّة وبين كُلّ الكُتب التي كتبها علماؤنا وفُقهاؤنا ومُحدّثونا فيما يرتبطُ بحديث أهل بيت العِصمة "صلواتُ الله وسلامهُ عليهم أجمعين".
بعد كُلّ هذا فإنّ الشيخ الكُليني حشد ما حشد مِن أحاديث أهل البيت، وقد اختارها بدقّةٍ عالية.. (378) حديث تتحدّث عن الأئمة الإثني عشر وبدقةٍ وتفصيل وبالأسماء وبالأوصاف وبالألقاب وبالخصائص.
● ربما أطلتُ بعض الشيء لأن هذهِ الأحاديث تُشكّل رُكناً أساسيّاً في معارفِ الكتاب والعترة، فلابُدّ أن أقِفَ عندها طويلاً كي يستشعِر المُتلقّي ويعرف أهميّة هذا الموضوع.. فأحاديثُ الأئمة الإثني عشر مِن الأهميّة ومِن الوفرة والكثرة ومِن الوضوح بشكلٍ ظاهرٍ جدّاً لِمَن أرادَ أن يخوضَ في أجواءِ الساحة الثقافيّة والعلميّة والحديثيّة في الوسط الشيعي.
ومجموعةُ الأحاديثِ هذهِ صاحبتنا منذُ أوّل لحظةٍ ظهرَ فيها التشيّع، وظهر التشيّع معَ أوّل لحظةٍ تَجلّتْ فيها بعثةُ خاتم الأنبياء. البعثةُ يعني بعثةَ التشيّع لِمُحمّدٍ وعليّ وآلهما الأطهار "صلواتُ الله وسلامهُ عليهم".. هؤلاء هُم مَظاهرُ الإسم الأعظم، والبعثةُ مظهرٌ للتّجلي الأعظم.. وراجعوا أدعيةَ ليلةَ المبعث الشريف إنّها ليلةُ التجلّي الأعظم (تجلّي الإسم الأعظم مِن الذات الأولى.. وتَجلّي محمّد وآل محمّد من ذاتِ الإسم الأعظم).
الإسلام هو التشيّع، والتشيّع هو الإسلام.. هذا هُو دينُ العِترة الطاهرة، ولا شَأن لي بتعاريف الفُقهاء ولا شأن لي بتعاريف المُخالفين.. هُم أحرار، وأنا حرٌّ أيضاً.
(وقفة عند المَعنى الحقيقي لِحُريّة الفِكْر وحُريّة العِلْم)
• فهذا المَضمون (أحاديثُ الأئمة الإثني عشر) رُكنٌ أساسيٌ في ثقافةِ الكتاب والعترة.. كتابُ سُليم مَبنيٌ على هذهِ الثقافة، وهُو أوّلُ كتابٍ عندنا في ساحة الثقافة العقائديّة الشيعيّة.. وكتابُ الكافي مَبنيٌ على هذا الفِكْر، وهُو آخرُ كتابٍ وأهمّ كتابٍ كُتِبَ في نهاياتِ عصْر النصّ المَعصوميّ الشرعي المُباشر. ويبقى هذا الأمر مُستمرّاً على طُول الخَطّ فيما بين كتاب سُليم إلى كتاب الكافي.. فإنّ كتاب الكافي هو خُلاصةٌ لكلّ تِلك الكُتب الأصول والتي مِن جُملتها كتاب سُليم.
• مِن مصادر كتاب الكافي هو كتاب سُليم بن قيس، وسائر الكُتب والأصول الأخرى التي قُلت أنّها بلغتْ الآلاف مِن الكُتب التي تضمّ حديث أهل البيت، وبعد ذلك عُرفتْ مِنها مجموعة سُمّيتْ بالأصول الأربعمئة.
الشيخ الكُليني نَقَل لنا خُلاصة الخُلاصة.. فالأُصول الأربعمئة هي خُلاصة عن آلاف من الكُتب الخاصّة بحديث أهل البيت، والكُليني نقل لنا الخلاصة مِن أهمّ هذه الأصول الأربعمئة.. ومِن هُنا جاء كتابُ الكافي غَنيّاً جدّاً، وواسعاً جدّاً، وعميقاً جدّاً.. ومن هُنا أيضاً نَعرف أهميّة موضوعٍ جَمَع له من الأحاديث وصل إلى 378 بشكلٍ مُباشر.. أمّا بقيّة الأحاديث فكُلّها تُشير إلى نفس الحقيقة.
✤ وقفة أعرضُ لكم فيها مجموعة مِن أهمّ المَصادر في مَكتبتنا الحديثيّة الشيعيّة التي اهتمّتْ بهذا الموضوع (موضوع النصّ على الأئمة الإثني عشر).
● معرفة أسرار الكُتب تُشكّل جُزءاً أساسيّاً في مَعرفة المَضامين التي تشتملُ عليها هذه الكُتب، ونعرفُ أهميّة هذه المضامين.
معرفُة الكُتب، معرفةُ مُؤلّفيها، معرفةُ طريقةِ تأليفها، مَعرفةُ الظروف التي أُلّفتْ فيها، مَعرفةُ الدوافع والأهداف، مَعرفةُ طريقة الأسلوب، ومَعرفة المصادر تجعلنا على وضوحٍ وبيّنةٍ من الأمر.. ولعنةٌ على علم الرجال.. فالحقائق تُدرك هكذا، لا كما يُريد منّا الرجاليّون أن نسير في الطريق المُظلم وأن نخبُطَ خبط عشواء..!